بروتوكالات حكماء الإسلام

أو كيف تنسج الأساطير المغرضة

بقلم دومينيكو لوسوردو
Domenico Losurdo
ترجمة : أ. رشيد أبو ثور

المصدر:

http://domenicolosurdo.blogspot.com
http://www.mondialisation.ca/index.php?context=va&aid=11690

عند بحثي في شبكة الإنترنيت، عن ردود الفعل على كتابي الأخير (ستالين، تاريخ ونقد أسطورة مغرضة ـ النشر Carocci 2008)، عثرت، إلى جانب التعليقات الإيجابية الكثيرة، على بعض علامات الريبة : هل من الممكن أن تكون الأعمال الشائنة المنسوبة لستالين، والتي هناك إجماع على تصديقها، تحتاج، في الغالب، انحرافات، وفي بعض الأحيان، تزييفات تاريخية ؟ أود أن أوعز إلى هؤلاء القراءالمرتابون خاصة، بتأملات مستوحاة من أحداث هذه الأيام. إن مأساة الشعب الفلسطيني في غزة الذي تعرض لحصار تجويعي، ثم لهجوم وإبادة من طرف الآلة الحربة الإسرائيلية، ماثلة أمام أعيننا جميعا. فلننظر كيف كانت ردة فعل الإصدارات الإعلامية الكبرى. ففي عدد ٢٩ ديسمبر لصحيفة "كورييلي دي لا سيرا Corriere della Sera "، يصدر بييرو أستيلينو Piero Ostellino في افتتاحيته، الحكم التالي : " إن البند السابع من ميثاق حماس لا ينادي بتدمير إسرائيل فحسب، بل ينادي بإبادة اليهود، كما يؤكد ذلك الرئيس الإيراني أحمدي نجاد". و نجد الإشارة إلى أن كاتب المقال، وهو يؤكد أمرا بالغ الخطورة، لا يقدم أي استشهاد نصي: بمعنى أنه يطالب بأن يصدق بغير دليل.

بعد ذلك ببضع أيام (٣ يناير)، كتب إرنيستو غالي ديلا لوجيا Ernesto Galli della Loggia، وكأنه يريد تصحيح كلام زميله، قائلا : في الحقيقة إنه لا يتحدث عن أحمدي نجاد. ولعله انتبه للخطإ الكبير الذي وقع فيه زميله. بعد إسرائيل، تعتبر إيران دولة الشرق الأدنى التي يوجد فيها أكبر عدد من اليهود، (٠٠٠ ٢٠)، ويبدو أن هؤلاء لا يتعرضون لأدنى اضطهاد. وعلى أي حال، لا يسع فلسطينيي الأراضي المحتلة، إلا غبطة اليهود الذين يعيشون في إيران، حيث لا يتعرضون للإبادة طبعا، وليسوا مهددين بالطرد الذي يتوخى الصهاينة المتطرفون إنزاله بالعرب الإسرائيليين.

من الواضح أن، غالي ديلا لوجيا يتكلم عن هذا بشكل جد سطحي. ويكتفي بالسكوت بخصوص أحمدي نجاد. وفي المقابل يصب جم افترائه على نقطة أخرى هامة، إذ يقول : لا تكتفي حماس بالمطالبة بـ "إبادة اليهود" الإسرائيليين، كما يؤكد ذلك أستيلينو Ostellino. فلا يجب الوقوف عند منتصف الطريق بخصوص التنديد بما اقترفه الهمجيون : إن حماس ترغب في تصفية كل اليهود، من على وجه الأرض" (صحيفة Corriere della Sera لـ ٣ يناير). وفي هذه الحالة كذلك، لا يقدم الكاتب أدنى دليل، فالانضباطية العلمية هي آخر ما يفكر فيه غالي ديلا لوجيا، الذي يجب الاعتراف له بتحدي التفاهة المضحكة. فحسب تحليلاته، لا يتوخى "الإرهابيون"الفلسطينيون، تصفية الآلة الحربية الإسرائيلية فحسب، بل يتوخون تصفية حتى آلة الولايات المتحدة العسكرية، لكي يوقفوا ما تقترفه من آثام، التي يندد كاتب افتتاحية صحيفة Corriere della Sera، ببعدها الكوكبي. وهؤلاء القادرون، من جهة أخرى، على تكبيد هزيمة حاسمة للقوة العظمى العالمية، إضافة إلى إسرائيل، يمكن أن يتطلعوا، حقيقة، إلى الهيمنة على العالم : وكأن غالي Galli يظهر في النهاية، بروتوكولات حكماء الإسلام!

وكما كان الشأن بالنسبة بروتوكولات حكماء صهيون وقتها، فلقد أضحت بروتوكولات حكماء الإسلام، تكتسي طبيعة الحقيقة الثابتة، ولا تحتاج إلى دليل على صحتها. ففي صحيفة "لا ستامبا La Stampa" لـ ٥ يناير إنزو بيتيزا Enzo Bettiza، يبرر مباشرة، القصف الكثيف الذي تشنه من السماء والبحر والأرض، باستعمال الأسلحة المحرمة دوليا، ضد شعب أعزل، إذ يقول : "إنها عملية دركية حاسمة جد عنيفة، تقوم بها دولة مهددة بالإبادة، من طرف طائفة أقسمت على انتزاعها من على وجه الأرض."

هذه الأطروحة التي تتكرر إلى حد الهوس، تندرج في إطار تقليد محدد بشكل واضح. بين القرنين ١٨ و ١٩،كان القس المعتدل غريغوار Grégoire، يناضل من أجل إلغاء الاسترقاق في المستعمرات الفرنسية : فتم نعته بزعيم "أكلة البيض"، هؤلاء السود المتوحشين والمتلهفين لإملاء بطونهم بلحم الإنسان الأبيض. وبعد ذلك ببضع عقود، حدث أمر مشابه في الولايات المتحدة، حيث كان دعاة إلغاء العبودية، والذين كانوا أغلبهم من المسيحيين، ولهم توجهات سلمية، يطالبون بـ " القضاء الكلي على مؤسسة الاسترقاق"؛ فتم اتهامهم فورا بسعيهم إلى القضاء على الجنس الأبيض. وفي منتصف القرن التاسع عشر أيضا، بإفريقيا الجنوبية، كان أبطال التمييز العنصري يرفضون منح الحقوق السياسية للسود، بحجة أن الوصول المحتمل للسود إلى الحكومة، يعني القضاء الكلي على المستوطنين البيض، وعلى الجنس الأبيض برمته.

إن الأسطورة المغرضة، الرائجة اليوم، سخيفة للغاية. فلقد أبدت مرارا حركة حماس استعدادها للتسوية، إذا عادت إسرائيل لحدود ١٩٦٧. وكما يعلم الجميع، أو يجب أن يعلم، أن الذي يجعل حل الدولتين أكثر إشكالية، وربما مستحيلا، هو التوسع المطرد للمستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. غير أن تعويض إسرائيل الحالية بصفتها

"دولة لليهود"، بدولة لشعبين، اليهودي والفلسطيني، تضمن المساواة للجميع، لن يؤدي بأي حال من الأحوال إلى إبادة اليهود، مثل ما لم يعني القضاء على الدولة العنصرية البيضاء، في جنوب الولايات المتحدة أولا، ثم في جنوب إفريقيا ثانية، تصفية البيض. فالذين يلوحون بشكل من الأشكال، ببروتوكولات حكماء الإسلام، يسعون في الواقع، إلى تحول الضحايا إلى قتلة، والقتلة إلى ضحايا.

ولا تقل اليوم سخافة وانتهازية الأساطير الدارجة حول ستالين والحركة الشيوعية برمتها. إذا أخذنا أطروحة "محرقة الجوع " أو "الجوع الإرهابي" الذي قد يكون الاتحاد السوفييتي قد فرضها على شعب أوكرانيا في ثلاثينيات القرن الماضي. فلا توجد حجة تدعم هذه الأطروحة. غير أن هذه ليست هي النقطة الأساسية. فالأسطورة المغرضة التي تم نشرها والتخطيط لها، خاصة في عهد ريغن Reagan، إبان الحرب الباردة، ليس لها من دور إلا إخفاء حقيقة أن " التجويع الإرهابي" الذي يلام عليه ستالين، قد مارسه، منذ عدة عقود، الغرب الليبرالي، وبالخصوص، على الشعوب المستعمرة، أو التي كان يريد إخضاعها لظروف استعمارية أو شبه استعمارية.

وهذا ما أردت أن أثبته في كتابي. فمباشرة بعد الثورة السوداء الكبرى، التي حطمت، في آن واحد، أغلال الهيمنة الاستعمارية وأغلال المؤسسة الاسترقاقية، في نهاية القرن الثامن عشر بسان دومينيك بهايتي Haïti، ردت الولايات المتحدة بتصريحات لتوماس جيفيرسون، الذي قال بأنه يريد تجويع الدولة التي أقدمت على صفاقة إلغاء الاسترقاق. ونفس السلوك تم اعتماده في القرن التاسع عشر. غداة شهر أكتوبر ١٩١٧، كان هيربيرت هوفير Herbert Hoover، الذي كان وقتها أعلى ممثل لإدارة ويلسون Wilson، ثم رئيسا للولايات المتحدة، يلوح بشكل واضح، بتهديد "التجويع المطلق" والموت جوعا"، ليس ضد روسيا السوفييتية فحسب، بل ضد كل الشعوب التي قد تسمح لنفسها بالانسياق وراء عدوى الثورة البلشفية. وفي بداية الستينات، كان أحد أعضاء إدارة كينيدي، والت روستوو Walt W. Rostow، يتبجح بأن الولايات المتحدة قد تمكنت من تأخير لـ "عدة عقود " التطور الاقتصادي لجمهورية الصين الشعبية !

وهذه السياسة لا زالت متواصلة إلى الآن : فالجميع يعلم أن الإمبريالية تحاول خنق كوبا اقتصاديا، وتحويلها، لو كان ذلك ممكنا إلى ظروف غزة، التي يمكن للطغاة أن يمارسوا فيها حق التحكم في الحياة والموت، قبل حتى القصف الإرهابي، بالتحكم سابقا في المصادر الحياتية.

وهكذا عدنا إلى فلسطين. فقبل أن يتعرضوا للفظاعات التي تصب على رؤوسهم اليوم، كان سكان غزة قد أخضعوا لسياسة قهرية طويلة، حاولت حرمانهم من الطعام والماء والكهرباء والدواء، بغية إرهاقهم وتيئيسهم. هذا إضافة إلى كون حكومة تل أبيب، كانت تعطي لنفسها الحق في لممارسة كما هي عادتها، ورغم "التهدئة"، تصفية أعدائها خارج أي إطار قانوني. حيث، قبل اجتياحها بجيش مدرب و شبيه بكتيبة عملاقة لتنفيذ حكم الإعدام، كانت غزة خاضعة لسياسة عدوانية وحربية. وفي نفس الوقت، انطلقت، وخاصة في الغرب، قوة عسكرية هائجة

تقاتل بمختلف أنواع السلاح الإعلامي، لتقضي على كل مقاومة منتقدة للأطروحة الباطلة والكاذبة، التي تقول بأن إسرائيل تخوض هذه الأيام حربا دفاعية : فلا يجرأن أحد على الطعن في صدق "بروتوكولات حكماء الإسلام " !

وبهذا الشكل تبنى الأساطير المغرضة : وأسطورة اليوم ترسخ مأساة الشعب الفلسطيني (الشعب الشهيد بامتياز، في عصرنا)، مثل تلك التي بتصورها ستالين، وحشا، واختزالها السيرورة التي انطلقت مع ثورة أكتوبر، في تاريخ إجرامي، تسعى إلى حرمان الشعوب المضطهدة من أي أمل أو أفق تحرري.